الفصل الرابع

أسئلة وأجوبة حول القدر

الميثاق بين الله والإنسان

السؤال: ما المقصود من :﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢)؟

الجواب: هذه الكلمات هي جزء من العهد والميثاق الذي أخذه الخالق من المخلوقات ولاسيما الإنسان، حيث جاء الجواب ﴿بَلَى﴾ مقابل السؤال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

لهذه المسألة جهتان:

١. لمن وُجّه هذا السؤال، وكيف سُئل؟

٢. متى سُئل؟

يمكن عرض الملاحظات الآتية حول الشق الأول:

أ- هو سؤال وجواب أو عقْد بـــ"ماهية تكوينية"، أُخذ من الإنسان و لم يك شيئاً مذكوراً، وأجابه بـــ﴿بَلَى﴾ تجاه الأمر بالخروج إلى ساحة "الوجود".

ب- لّما كان الإنسان في عالم الذرات، بل في عالم جزئيات الذرات، ساق رب العالمين -الذي يسوق كل شيء نحو الكمال- هذه الذرات مشوقاً إياها لتصبح إنساناً، وهو أخذ الميثاق والعهد، أي تحميل ذرة ما يفوق طاقتها بكثير، أي قول "بلى" تجاه الإيجاد الذي يترتب عليه التكليف من رب العالمين.

إن هذين الشكلين من "السؤال والجواب" أو "التكليف والقبول" كأنه لم يجر على شكل كلام ومحاورة، وعليه نظر قسْم من المفسرين إلى هذه المحاورة

على أنها من قبيل "الاستعارة التمثيلية". أي كأنه قيل كذا وأجيب عنه بكذا، فأخذت المحاورة قيمتها الحقوقية، وإلاّ فهو ليس عقداً موثقاً بالكتابة أو بالبيان الواضح.

وفي الحقيقة أن الانتهاء إلى هذا الحكم مع عدم النظر إلى فهرس "الخطاب والجواب" لرب العالمين الذي يملك ألف ألف نوع من الخطاب وألف ألف نوع من الجواب، لا يسلم من الخطأ قطعاً. وسنتناول هذا في موضعه.

ج- إن هذا النوع من طلب الإقرار وأخذ الميثاق بالشهادة، هو معرفة الإنسان بنفسه، وإدراكه أن فيه (الشاهد والمشهود عليه) هو نفسه لا غيره. فهو معرفة للنفس وهو تمثيل لحقيقة "من عرف نفسه فقد عرف ربه"[1] بوضع مرآة الماهية أمام الأنظار، وبهذا يكون شاهداً على ما ينعكس على شعوره مِن شَهْد الحقائق المتنوعة، ومن ثَمَّ إعلان هذه الشهادة. علماً أن هذا الإيجاب والقبول والتذكير والانتباه ليس سهل الاستيعاب، ربما هو من قبيل أمور تحتاج إلى كثير من الشرح لإدراكها، ومن هنا تتبين أهمية الإرشاد.

إن ما أُعطي للإنسان من أمانة "النفس" أو "أنا" فإنما أُعطيت له لمعرفة الخالق جل جلاله والاعتراف به،. وفي الحقيقة أن غاية وجوده هي هذه المعرفة والاعتراف؛ لذا فإن الإنسان يدل بوجوده هو على وجود الله ﷻ، وبصفاته الجزئية على ثروته ﷻ وغناه المطلق، وبعجزه وفقره على قدرته ﷻ وإحساناته. فهذه الموهبة والإحسان الإلهي، إنما يتفضل بهما سبحانه مقدماً على الإنسان، وما الإدراك والعرفان المترتبان على هذا الإحسان الأول إلاّ إعلان واعتراف من الإنسان على استشعاره بوجوده ﷻ عند النظر إلى كل موجود، واستبصار نوره تعالى في كل ضياء، وهذا يعني ميثاق ﴿أَلَسْتُ﴾ و ﴿بَلَى﴾.

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٣٤٣.

فهذا الميثاق هو إيجاب وقبول ونتيجة لمعرفة معاني الكتاب العظيم الذي سطرته القدرة والإرادة، وإدراك أسرار سطور الحوادث.

د- يجب ألاّ يُفهم ولا يُقيّم هذا الميثاق والسؤال والجواب وفق الجسمانيات والماديات. فالله سبحانه وتعالى يأمر كل مخلوق وفق ماهية كلٍّ منه بأوامر، ويستمع إلى الأصوات المنطلقة من المخلوقات أيضاً ويعلمها ويسعف طلباتها حسب مواضعها. وإذا عبّرنا عن هذا بالمصطلحات الكلامية نقول: إن الله سبحانه الذي يفهم كل المخلوقات رغم اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم وأنواعهم. ويأمرهم كذلك ويبلغهم حقائقه حسب هذا الاختلاف المتفاوت بين الألسنة واللهجات والأنواع، وينشر الحقائق، ويفتح للأنظار كتابَي الإنسان والكون، ويتسلم من مخلوقاته كلماتهم، ويعقد مواثيق وعهوداً معهم، بحيث يبقى الإيضاح الكلامي منحصراً داخل عبارة "الكلام اللفظي". ثم إن أنماط الخطاب الإلهي بدءً من إلهام الحيوانات إلى إلهام الملائكة، هي أنواع من الكلام الإلهي الذي هو تجلٍّ من تجليات "الكلام النفسي".

إن كلام الله سبحانه بهذا النمط من الكلام يجري في دائرة واسعة جدّاً بدءً من الواردات في قلب الإنسان إلى عالم الملائكة. إلاّ أن لكل دائرة من تلك الدوائر كيفيتها الخاصة بها من "الأخذ والعطاء" تختلف عن الأخرى. ولهذا لا يمكن أن يُفهم أو يُدرك ما يرد إلى دائرة معينة وما ينطلق منها في دائرة أخرى قط.

وفي الحقيقة أن الإدعاء بأننا يمكننا أن ندرك كل شيء خطأ جسيم. حيث إننا أدركنا في الوقت الحاضر أن ما نعلمه وندركه من الأمور ليس إلاّ بضعاً يسيرا، ويمكن أن نبصر بالمقدار نفسه أيضاً. وهذا يعني أن العالم الذي ندركه ونشاهده لا يُعدُّ شيئاً بالنسبة لما لا ندرك ولا نبصر.

ولهذا فتكلُّم رب العالمين مع الذرات وأمْرُه الأنظمة، وتركيبه أو تحليله

للأشياء تجري في أبعاد سامية رفيعة جداً، بحيث لا تسعها موازيننا الصغيرة.

إن الله سبحانه يأخذ الميثاق من الذرات، ومن الجزيئات، ومن الخلايا، ومن عالم الذرات، وفي رحم الأم، وفي عهد الطفولة... فنحن لا يمكن أن نقيس بوضوح هذه الأمور بموازيننا قطعاً، وبخاصة إن كان الأمر متعلقاً بروح الإنسان وبدايات تشكله الوجداني.

إن روح الإنسان وُجود مستقل. إذ ثبت هذا في الوقت الحاضر بوضوح تام بما لم يعد هناك ما يستدعي النقاش حوله، حيث إن علم باراسيكولوجي (Parapsikoloji) بفروعه المتنوعة التي تحيط بعالَم العلم قد حوّل هذا الموضوع إلى ما يثير فضول الإنسان ويدفعه إلى معرفة الروح ووجودها ووظائفها ورغباتها وآمالها حتى لم يبق محفل من محافل العلم أو مجلس من مجالس الطبقات الراقية إلاّ ويتكلم عنها. ولما كنا قد تطرقنا إلى مبحث الروح في موضع آخر لذا سوف نتناول فقط ما يمس منه موضوعنا الحالي.

إننا لا يمكن بحال من الأحوال أن ندرك بموازيننا للفهم والإفهام، الإيجاب والقبول المتعلق بالميثاق من حيث إنه قد عقد مع الروح، ذلك لأنها خلقت قبل جسد الإنسان. ومن ناحية أخرى إنها مالكة لماهية فوق الزمان. إذ إنْ كان كلام الروح شبيه بما في الرؤى من كلام وإدراك، وإن كانت الروح تستطيع أن تجري تفاهماً بدون الحاجة إلى موْجات صوتية -كما في التليباثي- وإن اكتسب هذا الموضوع أهمية كبيرة حتى في الاتحاد السوفيتي الذي يمثل العالم المعتقد بالمادية... فإن هذا يعني، بأن للروح لغة خاصة بها. هذا الكلام المتميز للروح ربما يظهر -بخطاب خاص لها- بالتداعي الخاص بها، وبنوع خاص بشخصها من الكلام، ويسجّل في وقت مناسب في مسجلات متميزة ويحفظ في كاسيتات متميزة وتستعمل لغة خاصة بها.

وبناء على هذا فقد دُعيت الأرواح في موضع الميثاق للمحاورة مع الرب الكريم ورأت الأرواح كل شيء واضحاً جليّاً لعدم توسط برزخ الجسمانية،

وقالت ﴿بَلَى﴾ للميثاق. ولكن لأن الكثيرين في أيامنا هذه لم يبحثوا هذا في باب الوجدان من كتاب الروح، لم يصادفوا هذا الميثاق، ولا يمكنهم أن يصادفوه. لأنه لا اطلاع لهم ولا بحث ولا تنقيب في ذلك العالم، فليس لهم أهلية للولوج إلى هذا العالم الروحاني. وفي الحقيقة أن الكتاب الصامت الذي أراد كل من "كانت" (Kant) -بصرف النظر عما كتبه حول تعريف الخالق في جميع كتبه- و"برجسون" (Bergson) اللذيْن أدارا ظهريهما للكون لينصتا إلى ما يقوله، إنما هو هذا الكتاب.. كان لا بد للإنصات إلى الروح وإعارة السمع إلى إلهامات الروح من تأسيس مختبرات لفهم لسان الوجدان ومحاولة إظهار وجه الحقيقة بالفهارس التي تنعكس على الشعور.

هذا الكتاب بذاته شاهد صادق لا يكذب على الحقيقة السامية، فهو العقد والميثاق. إن إفهام المحرومين من هذا اللسان ليس من السهل البتة. وإذا ما تخلت العقول عن أحكامها ومقيّداتها المسبقة، سيشعر الإنسان بما قاله وجدانه ﴿بَلَى﴾ لهذا الميثاق. وفي الحقيقة أن القصد من التفكر الأنفسي والآفاقي وأبحاثهما هو هذا. حيث ينجو الذهن من ضلالاته. ويعطى للفكر حرية ويحاول قراءة هذه الكتابة الدقيقة في الوجدان بعَدَسة التفكر الحر. وهناك الكثيرون قد عوّدوا أنفسهم على النظر إلى أعماق القلب بهذا السبيل. فالواردات التي يحصلون عليها بمشاهداتهم الداخلية وبلطائفهم الداخلية، لا يمكن أن يجدوها في أي كتاب من الكتب. إن رموز الكتب السماوية وإشاراتها يمكن أن تظهر بألوانها الخاصة بها تحت هذه العدسة. فالذين لا يستطيعون أن يروا هذا الأفق وظلّوا محصورين في أنفسهم ولم يتجاوزوها، لا يمكنهم أن يفهموا شيئاً من هذا في أي وقت من الأوقات.

والآن لنبحث الجهة الثانية من المسألة: متى حدث هذا الميثاق؟ ولا بد أن نوضح مقدماً أننا لا نكاد نجد في النصوص أمراً قاطعاً حول ذلك. ولكن يمكننا أن نذكر ما قاله المفسرون فيما يخص هذا الأمر.

حدث هذا الإيجاب والقبول في أثناء سير الحيمن للإخصاب، وفي أثناء اكتساب الجنين شكل الإنسان، أو بلوغ الطفل إلى الرشد. فكل رأي من هذه الآراء لها أساليب للدفاع عنها. ولكن من الصعوبة بمكان أن يرجّح أحد هذه الآراء على غيرها بسبب جاد.

فكما حدث هذا الميثاق في عالم الأرواح يمكن أن يحدث أيضاً في أثناء تعلق الروح بذراتها نفسها في عالم آخر. وكما يحدث في أيّة مرحلة من مراحل تطور الجنين في رحم الأم، كذلك يمكن أن يحدث في أية مرحلة من مراحل النمو حتى البلوغ.

فالله ﷻ الذي يخاطب الأمس واليوم معاً ويعلم ويسمع الأمس كاليوم ربما أخذ الميثاق في كل هذه المراحل. ونحن نسمع صوتاً صادراً كهذا من أعماق وجداننا ونطلع على شهادة قلبنا على الميثاق.

فكما أن المعِدة تعبّر بلسانها الخاص عن جُوعها، والجسم يعبر بكلماته الخاصة عن ألَمه، فالوجدان أيضاً -مستعملاً لسانه الخاص وفق اصطلاحاته الخاصة به- يسرد البحوث عن المكالمات والعقود، ويئن مما يشعر به من آلام واضطراب، ويقلق من أجل ألا يكون وفيا لما قطعه من ميثاق على نفسه، مُظهراً خلجاته وانفعالاته على صورة موجات متعاقبة، مثلما يلفت الطفل الأنظار إليه ببكائه، ويعدّ نفسه سعيداً بذلك، وينتابه الانكسار والخيبة عندما لا يتمكن من التعبير عما يعانيه.

فالوجدان مرآة صافية لأعظم الحقائق، ومكتبة غنية جداً، وسجل خاص، ومحفظة سامية حسب المدرك لحقيقة الوجدان.

الميثاق من جهة الدلالة

السؤال: هل هناك دليل عقلي على ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف: ١٧٢)؟

الجواب: هناك مسائل من الصعوبة بمكان إيضاحها عقلاً. حتى إذا شرحتْ فإنها تشرح على أنها من الممكنات، أي ليست محالاً. وفي الحقيقة مادام الله سبحانه يذكر هذا فلا يبقى إذاً عليه اعتراض قط.

يمكننا أن نتناول هذا السؤال من جهتين:

١. هل وقع أمر كهذا؟ إن كان قد وقع فكيف يمكن إثباته؟

٢. هل اطلع الفرد المؤمن على هذا الخبر؟

هل أن السؤال الوارد من الله سبحانه للأرواح -في أي عالم كان- ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وجواب الأرواح ﴿بَلَى﴾ أمر قطعي؟ هذا الموضوع ذكر في القرآن الكريم في آيتين اثنتين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف: ١٧٢). وهذا العهد قد أُخذ إذن والحادثة وقعت. وقد ذكر المفسرون قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية كلاماً كثيراً.

قال قسم منهم: قد أُخذ الميثاق من الذرات التي ستتركب فيها في المستقبل مركبات ومن أرواحها معاً. وآخرون قالوا: أُخذ حينما وقع الطفل في رحم أمه.

ومفسرون مدققون آخرون يقولون استناداً إلى حديث شريف أنه أُخذ من الإنسان في أثناء نفخ الروح (الحياة) فيه.

وفي الحقيقة أن خطاب الله سبحانه وتكلّمه مع المخلوقات متنوع جدّاً ومختلف جداً. فنحن هنا نتكلم بطراز خاص وبشكل معين، وعلاوة على ذلك فلَنا طرز كلام، لحواسنا الداخلية والخارجية، ظاهراً وباطناً، ولنا تكلّم عقلي وروحي، ولنا نمط من كلام نفسي ولفظي، وكثيراً ما نتكلم بهذه الألسنة ونحاول أن نفهّم الآخرين الذين يفهمونها.

فلِلقلْب لسان خاص به. فالقلب يتكلم ولكن لا يُشعَر به. فإذا قيل لنا، ماذا تتكلمون في باطنكم، نقول: كذا وكذا. ونسرد ما تكلمناه في أنفسنا. وهذا تكلّم نفسي. وأحياناً نتكلم في رؤيانا ونفهم من الآخرين أيضاً، ولكن لا يشعر به أي شخص بجنبنا. ثم ننقل الكلام بحذافيره إلى الآخرين. وهذا طراز آخر من الكلام.

وهناك أشخاص يعرض على أنظارهم في عالم اليقظة ما في عالم المثال من لوحات ويتكلمون مع أشخاص في عالم المثال. وربما بعض المادِّيين لا يصدّقون هذا ويقولون إنه "هَلْوسة" (Hallüsinasyon) لندعهم وشأنهم. فقد كان الرسول ﷺ يعرض على نظره النبوي السامي لوحات مثالية من عالم البرزخ وعالم المثال وهو بدوره ينقل ما شاهده وفهمه وأحسّه إلى الآخرين. وهذا نوع آخر من الكلام.

أما الوحي فكلام من نوع آخر كلياً. إذ كان الوحي يأتي الرسول ﷺ، فما كان غيره يشعر به ولا يفهمه، فلو كان هذا شيئاً ماديّاً يُسمع بالأُذن لَشعر به القريبون منه ﷺ. والحال كان يأتيه الوحي وهو واضع رأسه على ركبة إحدى زوجاته أو واضع ركبته المباركة على ركبة أحد الصحب الكرام، فكان الرسول ﷺ يفهم الوحي من دون أن يشعر به أحد غيره. وكان الرسول ﷺ يبلّغ ذلك الوحي حرْفيّاً إليهم. وهذا صوت بطرْز آخر وكلام بطرز آخر.

يرد الإلهام إلى قلب الولي، فيُهمَس في قلبه شيء، وهذا طرز آخر من

الكلام مثلما هو في لغة مورس "التلغراف" حيث يستطيع الموظف المختص تحليل ما يبثه هذا الجهاز من شفرات وإشارات. وقد تلقى بعض الأمور في قلب الوليّ، وهو بدوره يستخرج منها معاني شتى. فمثلاً: يقول الولي: فلان بن فلان على الباب، ويفتحون الباب فإذا بالشخص المذكور أمامهم. وهذا طرز آخر من الكلام.

وهناك التلباثي (Telephati): فعُلماء اليوم يهيئون بحساباتهم وتجاربهم أنه سيأتي يوم يمكنهم أن يتخاطبوا بالتليباثي. وهذا شكل آخر من الكلام. وتوجه القلب للقلب ووصول كلام الإنسان به بعضهم لبعض من الداخل بيان بطرز آخر.

يفهم من كل ما ذكرناه أن الله ﷻ قد خلق أنماطاً وطرزاً كثيرة لا تعد ولا تحصى من المخاطبات.

والآن لنعد إلى موضوعنا. إن الله سبحانه قال لنا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ولكننا لا نعلم بأي طراز من الكلام قد قال هذا، فإن كان كدَقّات مورس -ولا مشاحة في الأمثال- كما في الكلام مع الولي، فهذا لا يمكن أن نَسمع صوته بآذاننا. إن كان هذا إلهام فليس وحياً، وإن كان وحياً فليس إلهامًا. إن كان كلاماً مع الروح فليس هو كلاماً مع الجسد، وإن كان خطاباً للجسد فليس هو من نوع الخطاب للروح.

وهذه نقطة مهمة جداً. إن ما يشاهده الإنسان ويشعر به في عالم المثال وعالم البرزخ أو في عالم الأرواح، يخطئ الناس إذا ما قاسوا تلك الأمور بموازين هذا العالم. فالرسول ﷺ يقول: "العبد إذا وُضع في قبْره وتُولِّي وذَهب أصحابُه حتّى إنه ليَسْمع قَرْع نعالهم، أَتاه ملَكان فأَقعداه، فيقولان له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرّجل محمدٍ ﷺ؟...".[1]

(١) البخاري، الجنائز ٨٧.

تُرى إلى أي شيء يوجَّه السؤال؟ فسواء سئل جسده أو روحه، فالنتيجة لا تتغير. فحتّى لو شعر الميت بهذا الكلام، فالحاضرون حوله لا يشعرون به قطعاً. وحتى لو وضعوا آلة مسجّلة في القبر فلا يمكنهم أن يسمعوا شيئاً قط، ذلك لأن المكالَمة تجري في أبعاد أخرى وليست من طراز أبعادكم، كالأبعاد التي توصّل إليها أَلْبَرت أينْشتاين (Einstein) وغيره، البعد الرابع والخامس وأمثالها من الأبعاد. كذلك المسألة تتبدل بتبدل المكان، وتبرز أمامكم بهوية أخرى؛ لذا فـ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ كلام الله للروح بكلام خاص بها. ويلزم ألاّ أنتظر أن أدرك تأثير هذا الكلام أو أحفظه. بل يمكن أن أعيه بشكل إحساس منبعث من الوجدان. فنحن نستشعر بهذا بوجداننا على شكل إلهامات.

قال لي أحد الناس أثناء إيضاحي لهذه المسألة: إنني لم أشعر بهذا. قلت له: وأنا شعرتُ به، فإن لم تشعر به فأنت وشأنك. لأنني أتذكر جيّداً استشعاري به وإذا ما سُئلت "بأي شيء شعرت به" أُجيب: "بالتوْق إلى الأبَد المغروز فيّ". لقد سمعت هذا الصوت برغباتي غير المتناهية رغم أني مُتناهٍ. وفي الحقيقة أنني لا أستطيع إدراك الباري عز وجل لأنني محدود مقيّد، فكيف أُدرك المطلقَ غيرَ المحدود! ولكن أدرك عدم المقيد والمطلق بما فيّ من رغبة وتوْق نحوه. فحشَرة محدودة في هذا العالم المحدود تعيش في عالمها المحدود وحياتها المحدودة، ثم تموت. والأشياء الداخلة في حياتها هي الأخرى محدودة. وأنا مثلها في عالم محدود، ولكن أفكر في الـ"لا محدود" و"غير المتناهي". ففيّ رغبة نحو الأبَد، أحمل في روحي التوْق إلى الجنة ورؤية جمال الله. وحتى لو تملكتُ الدنيا كلَّها لا يزول همّي هذا. ولهذا قلت "أحسستُ به"، لأن فيّ هذه الحال.

فأياً كان الوجدان، فهو يترنم بذكر الله بكلياته وأقسامه ولا يكذب قط. فعندما تعطونه ما يرغب فيه يسكن ويطمئن. ولهذا لا يجد القلب الذي هو لطيفةٌ ربانيةٌ سكينتَه إلاّ إذا وجد الوجدان سكينته وطمأنينته. وإشارة لهذا

تقول الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد: ٢٨).

وهناك أمر آخر فـ"برجسون" (Bergson) وأمثاله من الفلاسفة تركوا جميع الأدلة العقلية والنقلية في إثبات وجود الله ﷻ واستعملوا وجدانهم وحده دليلاً على ذلك. حتى يقول "كانت" (Kant) في إحدى المرات: "إنني تركت جميع معلوماتي وراء ظهري كي أعرف الله معرفة تليق بعظمته". بينما "برجسون" نجده يريد أن يسلك هذا الطريق. ودليله الوحيد هو الوجدان. فالوجدان يضطرب ويقلق كثيراً من إنكار الله سبحانه، فلا يسكن ولا يطمئن إلاّ بالإيمان بالله. والإنسان عندما يستمع إلى صوت الوجدان الصادر من الأعماق، يشعر دوماً بوجود معبود أزليّ وأبدي. فهذه الحال وهذا الأداء هو الجواب بـ﴿بَلَى﴾ الذي عبّر عن نفسه بكلمات صامته في وجدان الإنسان، جواباً على سؤاله تعالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. فأيما إنسان إذا ما راقب ولاحظ بدقة، سيجد ذلك الصدى يصعد من أعماق روحه. وإلاّ لو يبحث عنه في العقل أو الجسد، يقع في التناقض. نعم إنه موجود في وجدان كل أحد، إلاّ أن إثباته يخص ميدانه هو. فأهل التحقيق وأهل الشهود والأصفياء والأولياء والأنبياء جميعهم شاهدوه بوضوح كالشمس في رابعة النهار وأظهروه للآخرين.

أما إثباته بالعقل فإننا لا نستطيع أن نبيّن هذا لكم كما نبين شجرة من أشجار الدلب أو شجرة الصنوبر. فالذي يستمع إلى وجدانه ويشاهد ما يجري فيه سيشاهد هذا وسيدركه وسيسمعه.

جزئيات الإرادة وكلياتها

السؤال: لقد بيّن القرآن الكريم أن الإرادة الكلية خاصة بالله وحده. ومن المعلوم أن للإنسان إرادة جزئية، فالذي يرتكب الآثام هل يرتكبها بناء على إرادته أم أن إرادة الله الكلية هي التي تدفعه لارتكاب الإثم؟

الجواب: نلخص المسألة بالآتي: إن الإنسان له إرادة، ونحن نطلق عليها "الإرادة الجزئية" أو "المشيئة البشرية"، أو "قدرة الكسب البشري". ونطلق على خلق الله سبحانه "الإرادة الكلية"، "قوة الخلق أو القدرة"، "الإرادة"، "التكوين" (وهذه صفات الله ﷻ). فإذا أخذت المسألة من جهتها التي تعود إلى الله تُفهم كأن الله يدفع الأشياء إلى الإيجاد اضطراراً فتظهر في الوجود. وهكذا تدخل في مسألة "الجبر". وإذا ما أخذت المسألة من جهتها التي تعود إلى الإنسان تُفهم أن الإنسان هو الذي يفعل فعله، وعند ذلك يدخل فكر "القدرية-المعتزلة" المؤسس على قولهم "العبد خالق لأفعاله".

إن الله سبحانه خالق كل شيء في الوجود، فالإرادة الكلية الواردة في السؤال هي هذه. حتى أن الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦) تبيّن أن الله خالقكم وخالق أعمالكم الصادرة منكم. فمثلاً: إذا صنعتم سيارة، أو أنشأتم بناءً فالله هو خالق هذه الأشياء، وأنتم وأفعالكم تعودون إلى الله. ولكن هناك أمر يخصّكم، وهو الكسب والمباشرة البشرية، وهذا هو شرط عادي وشيء كالميل، كلمس مفتاح شبكة الكهرباء التي تنير العوالم، فكما لا يمكن القول في هذا الموقف: لا دخْل لكم في الأمر قطعاً، كذلك لا يمكن أن يعود كل شيء إليكم.

فالعمل بتمامه يعود إلى الله، ولكنه ﷻ عندما يخلق هذه الأشياء قد قَبِل

مُداخلتكم الجزئية شرطاً عادياً في خلقها، وأنشأ كل ما يعمله على ذلك الجزء الاختياري.

فمثلاً: إن نظام الكهرباء في هذا الجامع قد خلقه الله سبحانه، وإضاءته مجدداً يخص الله أيضاً؛ فإيجاد ضوء من سيل الألكترونات وإضاءة الجامع كلٌّ منه فِعْل بذاته، وهذه الأفعال تعود إلى الله الذي هو نور النور منوّر النور مصوّر النور. ولكن لكم حصة ومداخلة في إضاءة هذا الجامع ومباشرة بالفعل، وهو ما وضعه الله سبحانه من نظام في الكهرباء، وهو مجرد لمسكم المفتاح يتنور الجامع. ووظيفة إضاءة الجامع بنظام الكهرباء تخص الله سبحانه وهي وظيفة تفوق كثيراً طاقاتكم وإرادتكم.

ولنوضح الأمر أكثر... مثلاً: مكنة مهيأة للعمل وللسير، أُعطيت لكم وظيفة لمس مفتاح العمل. فتحريك تلك الماكنة يخص الذي أنشأها، لذا نقول لهذه المباشرة الجزئية التي تخص الإنسان بـــ"الكسب" أو "الإرادة الجزئية"، أما ما يخص الله سبحانه بـــ"الخلق" و "الإيجاد". وبهذا تنقسم الإرادة إلى قسمين:

ا- الإرادة الكلية

ب- الإرادة الجزئية

فالإرادة أو المشيئة تخص الله وحده ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (الإنسان: ٣٠). ولكن لئلا يفهم الأمر خطأ؛ إننا عندما نقول هذا الكلام نقول إن للعبد أيضاً وظيفة لمس المفتاح، فله إرادة أيضاً، وذلك لئلا نقع في التضاد الذي في مذهب الجبرية. وعندما نقول إن الذي أوجد الشيء هو الله نبين به أننا لا ننظر إلى الأمور بنظر المعتزلة، وبهذا لا ندّعي الشرك بالله لا في ألوهيته ولا في ربوبيته تعالى. فكما أن الله سبحانه واحد أحد في ذاته فهو واحد أحد في إجراءاته، لا يُحمل عملُه على غيره، فهو خالق كل شيء بذاته. ولكن لأجل التكليف وأمثاله من الأسرار والحكم قد قَبِل مباشرة البشر شرطاً عادياً.

ولأجل الإيضاح نورد مثالاً يذكره رائد عظيم:

"إذا أخذت طفلاً عاجزاً ضعيفاً على عاتقك، وخيّرته قائلاً: إلى أين تريد الذهاب، فسآخذك إليه. وطلب الطفل الصعود على جبلٍ عالٍ، وأنت أخذته إلى هناك، ولكن الطفل تمرض أو سقط. فلا شك أنك ستقول له: أنت الذي طلبت! وتعاقبه، وتزيده لطمة تأديب. وهكذا -ولله المثل الأعلى- فهو سبحانه أحكم الحاكمين جعل إرادة عبده الذي هو في منتهى الضعف شرطاً عادياً لإرادته الكلية".[1]

ففي هذا المثال هل يمكن إنكار إرادة الطفل؟ لا شك أن الجواب: كلا، لأنه هو الذي طلب وأراد. أما الذي أوصله إلى ذلك المكان العالي فهو أنت، والمرض كذلك لم يفعله الطفل، وربما لم يصدر منه غير الطلب، لذا فلا بد من التمييز بين الذي مرّض وأوصل الطفل إلى هناك والذي طلب هذا الفعل. فنحن ننظر إلى القدر وإرادة الإنسان من هذا المعنى والفهم. ولا يعلم حقيقة الشيء إلاّ الله المقدّر.

(١) الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي، الكلمة السادسة والعشرون / المبحث الثاني / المثال السابع.

المشيئة الإلهية وحرية الإنسان

السؤال: في القرآن الكريم ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾(الكهف:١٧) وهناك أيضاً، أن الله قد منح الإنسان العقل والتفكر وله إرادته وهداه الله السبيلين أيما شاء سلك. كيف يمكننا أن نؤلّف بين الأمرين؟

الجواب: في هذا السؤال شقان:

هل الشيء يحدث بالإرادة الكلية بما يشاؤه الله، أم أن الإنسان يستعمل إرادته؟ فالهداية الواردة في السؤال تعني: الطريق المستقيم، الرشد، الطريق الذي سلكه الأنبياء. أما الضلالة: طريق الضالّين، الضياع عن الطريق المستقيم، الانحراف عن الجادة. فإذا ما دقق النظر تبين أن كِلا الأمرين فعلٌ واحد، وأن جهته التي تعود إلى الإنسان عبارة عن أُفعولة، لوظيفة. وعلى هذا يقتضي تفويض كليهما إلى الله ﷻ، إذ كل فعل يرجع إلى الله، فلا فعل لا يرجع إليه، فالله بمقتضى اسمه "المضلّ" يخلق الضلالة وبمقتضى اسمه "الهادي" يخلق الهداية، فالذي يهدي ويضل هو الله وحده ﷻ.

ولكن هذا لا يعني، أن العبد يُدفع إلى الضلالة والهداية دفعاً وكرها من قِبل الله من دون أن يكون للعبد دخل ومباشرة، فيكون ضالاً أو مهتدياً راشداً. ويمكن أن نفهم هذه المسألة باختصار كالآتي:

إن الاهتداء أو السقوط في الضلالة، ليكن فعلاً بثقل عشرة أطنان مثلاً. فإن إعطاء واحد من مائة من هذا الثقل إلى الإنسان خطأ، لأن المالك الحقيقي هو الله سبحانه فلا بد أن يُعطى الفعل إلى مالكه.

ولنوضح الأمر أكثر: إن الله سبحانه يهدي، وله وسائل للهداية. فالمجيء إلى الجامع والإنصات إلى الوعظ والتنور فكراً طرقٌ للهداية؛ والاستماع إلى القرآن الكريم والتدبر في معانيه والنفوذ في أعماقها من طرق الهداية أيضاً؛ وحضور مجلس الرسول ﷺ والتتلمذ على أحاديثه الشريفة النابعة من القلب والاستماع إليها بأُذن الروح والإنصات إليه بقلب شهيد وجعل وجدانه مرآة عاكسة لما يرد منه من التجليات من طرق الهداية... فالإنسان في هذه الطرق يباشر الهداية. نعم، إن المجيء إلى الجامع مباشرةٌ جزئية، ولكن الله ﷻ يجعل هذا المجيء وسيلة للهداية، فالهادي هو الله، ولكن الطارق لباب الله بلوغاً إلى هذه الهداية هو العبد بعنوان "الكسب".

والإنسان بتردده إلى الحانات وأماكن السفاهة والأصنام يكون قد طرق باب اسم "المضلّ" وكأنه يقول "أضلّني". والله سبحانه يضلّه إذا شاء، وإذا شاء يوجد عوائق لئلا يضله. فإذا ما أمعنّا النظر إلى الإرادة الجزئية للإنسان نجدها صغيرة وضئيلة إلى حد لا يمكن أن توجِد الهداية ولا الضلالة.

أتريدون مثالاً؟ انظروا! عندما تستمعون إلى القرآن الكريم والوعظ والإرشاد أو تقرأون كتاباً علمياً يغرق باطنكم في النور. بينما شخص آخر بمجرد سماعه الأذان المحمديّ أو الوعظ والنصيحة بل أرقّ المناجاة القلبية، إذا به ينـــزعج ويتضايق حتى يشكو من صوت الأذان.

بمعنى أن الذي يهدي ويضل هو الله، ولكن إذا ما وطئتْ قدم امرئ طريق الضلالة فإن الله سبحانه يخلق ما يخصه وهو ٩٩٩.٩ من العمل. كما هو الحال في لمس مفتاح الكهرباء، ثم يجعله يميل إلى الضلالة. ولرغبته هذه إما يعاقبه أو يعفو عنه.

المترفون والفقراء . . . لماذا ؟

السؤال: نشاهد أن الله قد أعطى الكثيرين الأموال الطائلة والسيارات الفارهة والقصور الفخمة والشرف الرفيع والصيت الذائع... بينما الآخرون يتضورون جوعًا وتصيبهم آلام وبلايا ومصائب وفقر وعلل. فيا ترى هل هؤلاء فاسدون والآخرون يحبهم الله حتى أغدق عليهم ما أغدق، بينما هؤلاء ينسحقون تحت وطأة أعباء الحياة؟

الجواب: هذا النمط من السؤال لا يُسأل إلاّ للتعلم فحسب. وإلاّ وإلا فإن السائل يكون آثماً. والحقيقة أن الذي يعاني مثل هذه المعاناة يلزمه هذا السؤال.

نعم، إن الله يعطي لمن يشاء العمارات والسيارات والخيول المسومة والأنعام والحرث... ولمن يشاء الفقر والضرورة والحاجة. وينبغي في كل هذا عدم إنكار دور الأسباب الآتية من الأسرة والبيئة المحيطة بالفرد. فمثلاً كما لا يمكن إنكار دراية شخص في كسبه المال، لا يمكن إنكار كون علمه بطرق الكسب وفق ظروفه المحيطة سبباً لكسبه. علاوة على ذلك فإن الله في الوقت الذي أظهر أهلية بعضهم، لم يعطهم المال والأولاد. ومع هذا فقد ورد في حديث ذي مغزى عميق يخص موضوعنا: "عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: إن الله قسَم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإنّ الله عز وجل يعطي الدنيا من يحبُّ ومَن لا يحبّ ولا يُعطي الدِّين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدِّين فقد أحبَّه".[1]

(١) المسند لأحمد بن حنبل، ٣٨٧/١.

ومن ناحية أخرى لا ينبغي أن تعدّ الأموال خيراً. نعم، إن الله إذا شاء يؤتي أحياناً البعض الأموال والأولاد وأحياناً لا يؤتيهم. فالخير وارد في كلا الحالتين. لأنك إن كنت صالحاً واستعملت ما آتاك الله من مال في صالح الأعمال فإنه يكون لك خيراً، وإن كنت طالحاً وضالاً عن الصراط السوي فإعطاء الله لك ليس خيراً.

نعم، إن لم تكن لك استقامة على الطريق فالفقر يكون لك باباً للكفر. لأنه يسوقك إلى عصيان الله، ويوماً بعد يوم تزيد عصياناً لله. كذلك إن لم تكن على الصراط السوي ولم تكن لك حياة قلبية وروحية يكون غناك وَبالاً عليك وبلاء. قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(الأنفال: ٢٨). ولقد خسر الكثيرون في هذا الامتحان. إذ هناك الكثيرون جداً ممن غرقوا في الثروات الطائلة وليس في قلوبهم بصيص من نور بسبب كفرانهم النعم. لذا فإن إتيان الله الأموال لمثل هؤلاء إنما هو استدراج ووسيلة لإضلالهم. وهم يستحقون هذه النتيجة لأنهم أماتوا حياتهم القلبية والروحية وأفسدوا قابلياتهم التي وهبهم الله.

ولعل الحديث الشريف الآتي يوضح الأمر أكثر: "كم مِن أشْعثَ أغْبَر ذي طِمْرَيْن (صاحب ثوبين خلقين) لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأَبَرّه، منهم البراءُ بن مالكٍ".[1] علماً أن البراء بن مالك أخا أنَس بن مالك ما كان له طعام يأكله ولا مَسكن يأوي إليه. فكان يعيش على ما يسد الرمق. ولربما هناك الكثيرون ممن يشبه البراء أشعث أغبر لكن الله نظر إلى قلوبهم العظيمة وأرواحهم الواسعة ومنَحهم هذه المنـــزلة، فكما ورد على لسان الرسول ﷺ لو أقسم على الله لأبرّه.

ولهذا فليس الغنى وحده ولا الفقر وحده مصيبة، وإنما كلٌّ حسب موقعه. الفقر في موضعٍ والغنى في موضع يعدّان نعمة إلهية. والرسول ﷺ قد

(١) الترمذي، المناقب، ٥٥.

اختار الفقر بإرادته وقال "أما تَرْضَى أنْ تكون لهم الدنيا ولنا الأخرةُ".[1] ونرى أن سيدنا عمر ﷺ في الوقت الذي وردت إليه خزائن الدنيا يكتفي بالكفاف من العيش ويرفض الزيادة عليه.

ولكن هناك فقر يكاد يكون كفراً -والعياذ بالله- فمثلاً: إن لم يكن السؤال صادراً من شخص مؤمن، بل من شخص كافر بالنعم، فهذا الشخص الذي يشكو من نعم الله يكون كافراً.

بمعنى أن الفقر نعمة في موضعه، والغنى نعمة في موضعه. والأصل في المسألة وجود المصدّق في القلب.

يا ربي! جميل ما يأتي منك،

يعجبني كل ما يأتي منك

سواء أكانت خلعة أو كفناً،

وَرْدة مفتحة كانت أو شوكة،

فلطفك جميل وقهرك جميل..

وكما يردّدون في شرقي الأناضول: كل ما يأتي منك جميل.

نعم، إن الإنسان لو كان في بحر من الغنى، وكان مع الله سبحانه فسيكون كالشيخ عبد القادر الكيلاني الذي قدمه على أكتاف الأولياء وقدم رسول الله ﷺ على كتفه. ولكن إن كان مقطوع الصلة مع الله فقد خسر ذلك الفقيرُ الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وكذا الغني الذي لا صلة له مع الله سيكون مصيره الخسران وإن كان يرفل بالسعادة ظاهراً.

---

(١) البخاري، تفسير سورة (٦٦)، ٢؛ مسلم، الطلاق، ٣١.

العاهات الجسدية

السؤال: لِمَ لم يخلق الله تعالى عباده متساوين؟ فقد خلق بعضهم أعمى وآخر أعرج؟

الجواب: نجيب عن هذا السؤال قائلين:

١. إن الله مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء، لا يتدخل أحد في إجراءاته قط. فالذي خلق ذرات جسمك ونظم تركيب أجزاء جسمك هو الله، والذي وهب لك الإنسانية هو الله أيضاً. إنك لم تعطِ شيئاً مقابل هذا كي تدّعي أن لك حقاً عليه. فلو كنت قد أعطيت شيئاً مقدماً فلربما كان لك الحق في السؤال: "لا تعطني عيناً واحدة بل عينين، ولا يداً واحدة بل يدين" وأمثالها من الطلب والإعتراض. فأنت لم تعطه شيئاً حتى تُسند إليه الظلم (حاشاه). إن الظلم نابع من عدم الإيفاء بحق، فأين حقك عليه الذي لم تستوفه منه، حتى تدّعي وقوع الظلم عليك.

إن الله ﷻ أوجدك من العدم، ثم جعلك إنساناً، فلو تدبرت قليلاً فإن دونك كثير جداً جداً من المخلوقات. عند ذلك تجد نفسك قد نلت الكثير من النعم.

٢. إن الله سبحانه قد يأخذ رِجْل إنسان ولكنه يعوّضه عنها في الآخرة بأشياء كثيرة، إذ يُشعر ذلك الإنسان بأخذه ذلك الجزء منه بعجزه وضعفه وفقره ويحوّل قلبه نحوه. ولئن جَعل قلب ذلك الإنسان يشرع بالانشراح والانكشاف فلقد أَعطى له الكثير وأخذ منه القليل. فهذا يعني في الحقيقة لطف الله سبحانه بذلك الإنسان وإن كان لا يبدو كذلك. كما يرزق أحدهم الشهادة ويدخله الجنة، ويحظى بالحضور الإلهي، وهي مرتبة يغبطه

عليها الصدّيقون والصالحون، حتى يقول من يراه "يا ليتنا نفوز بالشهادة مثله". فإنسان كهذا الذي نال الشهادة لو قُطّع إرباً إرباً لما عدّ أنه فقد الكثير، إذ الذي ناله أكبر بكثير مما أعطاه.

ونادر جداً أن ينحرف بعض الذين فقدوا بعض أجزائهم إلى الشعور بالنقص والاعتراض والسخط والتشاؤم، فالكثيرون منهم أصبحت هذه النقائص وسيلة لدفعهم إلى التوجه إلى الله.. فالأصل في المسألة تنبيه روح الشوق إلى الآخرة في الناس الذين هم مخلوقون أصلاً لها.

فإن هذه العوارض تدفع صاحبها إلى الله. والآخرون يتعظون بها وتورثهم الثقة والاطمئنان بالله وعندها يحصل المقصود المتسم بالحكمة.

إن الإنسان والحيوان والنبات وجميع الموجودات لا تظهر إلى الوجود إلاّ بقدرة نافذة فيها. فتوفى مهمتها بعرْض نفسها كالمرايا لتلك القدرة، ثم تنسحب من مسرح الوجود ليحلّ غيرها محلها.

وجميع المواليد وجميع الوفيات في هذا العالم إنما هي مواضع لإجراء الامتحان. فكما أن وجود أي شيء كان دليل على موجدٍ وراء الستار، كذلك وفاة كل شيء وانتهاء وظيفته دليل على أبدية ذلك الموجد الذي وراء الستار الذي لا أول له ولا آخِر. فكما أننا والموجودات كلها ظهرنا إلى الوجود من العدم ومن "لا شيء". وندل بوجودنا على وجود موجِد، وببصرنا وسمعنا وعلْمنا على واحد بصير سميع عليم؛ كذلك بتركنا -عند الوفاة- كل ما حملناه أمانةً على امتداد الحياة ندل على "الواحد الفرد". فـ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الملك:٢).

إن أهم شيء بالنسبة للإنسان إدراكه سر المجيء إلى الدنيا واجتيازه امتحان الوجود، والتهيؤ إلى الرحيل.

والآن بعد هذا التمهيد نتناول موضوع: هل آجال الذين يتوفون في آن واحد قد أتاهم معاً؟

نعم، إن أجل جميعهم قد أتاهم معاً. وليس هناك مانع قط في خلاف هذا الأمر. فكما أن الله ﷻ القابض على الوجود كله يوجد كل شيء وكل الناس معاً وفق قدره بدءاً من الذرات إلى المجرات، فإنه قادر على أن يُميتهم كلهم معاً. وإن وجودهم في أماكن متعددة وبالكَيفيات المتنوعة واتصافهم بالأوصاف المختلفة لا يُشكّل مانعاً من ذلك.

لا شك أن إيراد مثال، يعكس تماماً القدرة المطلقة صعب جداً. ولكن يمكن إعطاء أمثلة كثيرة من الأشياء التي يمكن أن تكون مرايا لتلك القدرة فتنور الفكر.

فمثلاً: إن الموجودات المختلفة في الأوصاف والكيفيات المتوجهة للشمس، تمضي حياتها متوجهة إليها دون أن تسبب ما يكدر الحياة، فتأخذ أجمل الحالات تحت ضيائها متحولة من لون إلى آخر، وتنمو وتترعرع بشروقها وغروبها. ثم تنطفئ وترحل. كذلك الحال في كل شيء يتلقح في الربيع وينتشر في الصيف، ويزداد نمواً ثم يصفر في الخريف ويذبل، ولكن لكلٍّ قدرُه. فكلها يظهر وجوده حسب الطريق الذي يخططه له العلم المطلق ووفق خططه وتصاميمه وبتوجيه الإرادة المطلقة والمشيئة المطلقة، لا كيفما اتفق ولا بحسب رغبة الموجود، بل حسب ما تريده تلك المشيئة والإرادة ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام: ٥٩).

فلئن كانت حياة الأشجار والأعشاب والبذور والنوى وموتها ونموها وثمراتها تراقب مراقبة جادة إلى هذه الدرجة، فهل يمكن أن يُترك الإنسان سدىً وهو أكمل الموجودات؟ إن مالك الملك الذي لا يشغله سمعٌ عن سمع ولا رؤية عن رؤية لا شك أنه يهتم بالإنسان الذي هو أعز مخلوق وأبدع صنعة لديه سبحانه، وينعم على كل فرد منه ما ينعم على نوع المخلوقات الأخرى وجنسها. ويرعى الإنسان الذي هو فهرس العوالم بشكل خاص.

ويتفضل عليه من أفضاله وإحساناته الخاصة ما يتفضل، وسيشرّفه بحضوره بسَوقه الخاص.

هذه الدعوة والسَّوق الإلهي قد يكون أحياناً على فراش، وأحياناً في ساحة الحرب، وأحياناً بآفة ومصيبة، حتى قد تكون فرادى وأحياناً مجتمعة. فهذه الأمور لا تؤثر في النتيجة من حيث زاوية نظر الخالق إلى الإنسان. إن العليم المطلق والقدير المطلق، والقابض على أنفاس كل كائن حي وزمام كل إنسان ويرسله متى شاء.. هذا القدير العليم، قبضُه للأرواح وفق ما كتب عنده -سواء كان فرداً معيناً أو جماعة- أمر منطقي ومعقول جداً، وإن هذا شبيه بموعد تسريح فوج من الجيش بأمر من القائد العام، ذلك الموعد الذي كان محدداً مسبقاً.

فضلاً عن ذلك فإن هناك ملائكة كثيرين جداً مكلفون بقبض الأرواح، يمكنهم أن يقبضوا الأرواح في آن واحد في الأماكن التي انتشرت فيها الآفات، بتقدير وإشراف مالكهم الكريم سبحانه، بل ربما هناك عدد من الملائكة يمكنهم أن يقابلوا كل شخص متوفى ويستقبلوه وفق ما بين أيديهم من الكتاب.

في مثل هذه الآفات والمصائب -إذا ما لوحظ بدقة- لا يمكن للإنسان ألاّ يشاهد التقدير المسبق ومجيء أجَل المتوفين معاً. وربما نحتاج إلى مجلدات لتسجيل جميع الحوادث الخارقة والعجيبة في هذا الشأن. فضلاً عن أن المسجَّل منها والمكتوب كثير إلى حد يتجاوز المجلدات. فلا يغادر يوم إلاّ ونطّلع في المطبوعات على بضع من هذه الحوادث الخارقة.

مثلاً: أن الزلزال الرهيب الذي يجعل عالي المدن سافلها، في الوقت الذي لا يمكن إنقاذ أُلوف من الناس رغم ما يُبذل من جهود مضنية، إذا بمئات من الأطفال العاجزين حتى عن الحفاظ على أنفسهم، يعثر عليهم تحت الأرض وهم في راحة دون أن يمسهم أي ضرر. أو تدحرج عربة إلى قناة الماء ويتوفى

جميع مَن فيها من العمال، وإذا بمسافات بعيدة عن الحادث يعثر على طفل في القماط فوق الماء لم يصبه أي أذى. وكذا في حادثة سقوط طائرة يحترق كل من فيها بما فيها الملاحون الماهرون جداً، وعلى بُعد مئتي متر من الحادث يُعثر على طفل محبوب لم يصبه أذى... وأمثالها من الحوادث تثبت أن الحياة والموت ليس حبلهما على غاربهما، بل يحدثان بتدبير مَن هو عليم بصير مدبّر.

إن كل مخلوق يأتي إلى الحياة فرداً فرداً أو مجموعة مجموعة، بعد أن ينهوا أعمالهم التي كُلّفوا بها والمسجلة في سجل أعمالهم الأساس وذلك بمجيء آجالهم، وبعد أن أدّوا مهام فطرتهم وفهْم دقائقها وأسرارها وكشفوا عما وراء الطبيعة من خفايا وأصبحوا مرايا لتجليات من أرسلَنا جميعاً وهو الله سبحانه.. أقول بعد أن أكملوا عمرهم يسرّحون فرداً فرداً أو مجموعة مجموعة.

إن هذا العلم بإتيان المخلوقات ثم تسريحهم من أعمالهم، أي إنهاء وظائفهم وإتيان آجالهم في آن واحد، أمر هيّن جداً على الله العليم بكل شيء من بدايته إلى ختامه، فضلاً عن أننا نعلم أن الذي يعلم الجهر وأخفى له عدد غفير من الملائكة حول كل إنسان وعدد كثير من الملائكة لقبض الأرواح.

وربما يرد هنا اعتراض على هذه الصورة:

"إن في مثل هذه المصائب يذهب كثير من الأبرياء بجنب الذين يستحقون البلاء فهل توضحون الأمر لنا؟"

فنبادر إلى القول: إن هذا السؤال نابع من خطأ في العقيدة والتصور الإيماني. إذ لو كانت الحياة مجرد هذه الحياة الدنيوية ولا توجد آخرة وليس للإنسان إلاّ هذه الدنيا، ربما كان لهذا الاعتراض ما يبرره بوجود وجه صواب فيه. بينما هذه الدنيا للإنسان ليست إلاّ مَزرعة، وساحة عمل،

وصالون انتظار. أما الآخرة فهي البيْدر وموضع الحصاد وأخذ الثمرات ومكان لبلوغ السعادات والنجاة من إزعاجات الدنيا. ولهذا فلا غرابة قطعاً في موت الطيب والخبيث والبريء والمجرم معاً. بل إن جريان الأمر هكذا هو الموافق للعقل والمنطق. لأن كل إنسان سينال في البعث وجوداً جديداً حسب نياته وأطواره ويعامل وفقهما. فإما حياة سعيدة خالدة أو شقاء دائم.

حاصل الكلام: إن الموت والأجل عبارة عن انتهاء مدة البقاء والعمل في هذه الدنيا. فمثل هذه المدة ما هي إلاّ ما أعدّه البصير العليم من خطة مرسومة مسبقاً ومسجلة في السجلات الأساسية، وتنفذ في الوقت المحدد بأمره سبحانه أيضاً. ولا فرق منطقياً في هذا إن كان فرداً أو مجموعة.

وأعتقد أن السبب الأول للانحراف -كما هو هنا وفي كثير من المسائل- هو الجهل بالعلم الإلهي المطلق وبقدرته غير المحدودة. وسبب آخر أيضاً هو الخطأ في زاوية النظر إلى الأشياء والحوادث. فإن لم نتمكن من الانسلاخ من مفاهيم الطبيعة والمصادفة، ولم نرقَ وجداناً إلى التجرد، فإن باطننا سيمتلئ بالمفاهيم الزائفة ويغدو ميداناً لصراع الوساوس الشيطانية، في أثناء مواجهتنا للأحداث الجارية. وفضلاً عن ضعف عالمنا الروحي، وعدم تغذيته الغذاء اللازم، يُجرّع كؤوس الشبهات التي لا سند لها يومياً، وتلك مصيبة رهيبة جداً لا تؤدي إلى انحراف النسل الآتي فحسب، بل حتى أنّ حفاظهم على استقامتهم حالياً أمر عجيب.

الآجال وتبرئة القاتل

السؤال: إن كان وقت الأجل وكيفيته معيناً مسبقاً فما ذنب القاتل؟

الجواب: إن زمن الموت وكيفيته قد عُيّنا مسبقاً كما هو معيّن لكل شيء. بمعنى أن ما هو وارد وواقع للكائنات قاطبة وارد وواقع أيضاً لحياة الإنسان وموته. فالحقيقة التي لا يمكن العدول عنها هي بلوغ كل موجود إلى الوجود بطرق معينة ومضي حياته وفق أسس معينة، ثم بعد مدة معينة يجري انسحابه من مسرح الحياة.

نعم، إن كل شيء يولد وينمو ثم يموت سائراً وفق خطة مرسومة معيّنة له ضمن دائرة قدر عامة واسعة جداً. فهذا نظام عام أزلي لا يتبدل ويمتد حتى للآباد.

إنه من الواضح جداً بالعلوم الحديثة وبقواعدها وأسسها الثابتة الشاملة النابعة من صميم الكون الذي يسير وفق نظام دقيق وفي انسجام بديع يحيّر العقول، أن لكل شيء تعييناً مسبقاً وتقديراً معيناً بدءً من الذرات إلى المجرّات. ولا يمكن إيضاح النظام البديع للكون ولا الانسجام الرائع الذي فيه، بل لا يمكن إحراز أي تقدم في العلوم الصرفة إلاّ بمثل هذا التعيين والتخطيط المسبق.

إن ما في الكون الواسع من نظام دقيق وهندسة رائعة والسائر وفق قوانين رياضية مقننة معينة هو الذي يدفع إلى القيام ببحوث ودراسات في مختبرات الفيزياء وفق أسس معينة ودراسة وشرح علم التشريح ضمن قواعد معينة، أو الانطلاق إلى أعماق الفضاء. إذ لا يمكن قطعاً البحث عن العلوم في كون لا نظام فيه وفي عالم لا خطة فيه وفي مجموعة من الطبيعة التي لا تعمل بنظام. بل العلوم أصلاً غدت عدسة لقسم من القواعد والأصول فدخلت الكتب تحت عنوان "العلوم".

لا شك أننا هنا لا نريد الحط من أهمية العلوم ومكتشفاتها، بل نريد التذكير بموقعها ومكانها، ونلفت النظر إلى ما هو أهم وأجلّ وهو النظام والانسجام البديع الذي كان موجوداً في الكون قبل كشف العلوم عنه. فكأن هذا النظام كالقلب النابض للكون. فما أعظم القدرة التي عينت هذا النظام البديع بخطة قدرية مسبقة وجعلته أساساً للكون أجمع. حتى ظهر من علماء الاجتماع من يريد تطبيق هذه القوانين المهيمنة في العالم "النازلة من الأعلى" على المجتمعات الإنسانية. فعلى الرغم من أن الدعوة إلى القدر إلى هذا الحد أو بتعبير أصح الجبرية المفرطة معرضة للاعتراض والانتقاد دائماً إلاّ أنها ذات مغزى عميق من حيث الاعتراف بالنظام الحاكم على العالم أو بالخطة الأزلية المسبقة للعالم.

إن أية حقيقة تمس العقيدة مستغنية عن إسناد وتصديق من خارجها، ولكن جيلنا الحاضر غير المحظوظ الذي زاغ بصره بكثير من النظرات الأجنبية وانحرف قلبه بكثير من هذيانات خارجية عندما نخاطبه: "ارجع إلى رشدك!"، نعتقد أن بيان التناقض -ولو بالإشارة- في أقوال الذين أفسدوا هذا الجيل وأصلّوه فيه فائدة. وإلاّ فسير الكون برمته وفق تناسب بديع ونظام دقيق، من الذرات إلى المجرات والانسجام الكامل والتعيين والتقدير المسبق الذي يربط كل شيء ببعضه، يملأ البصر، مما يدل على حاكمية مطلقة مهيمنة. فالعوالم مذ خلقها الله منقادة إلى هذه الحاكمية المطلقة وتخضع في تحولاتها خضوعاً تاماً لأوامرها.

وعلى الرغم من أن الخلق الأول جبري كلياً بالنسبة للمخلوقات كافة، بما فيها الإنسان وما شابهه -ممن له الحرية والإرادة- فإن هذه المخلوقات ذات الإرادة والحرية تتمايز عن أقرانها في الأمور التي تندرج تحت إرادتها، ولأجل هذا التمايز يأخذ التعيين المبدئي (المسبق) نمطاً خاصاً به.

وفي الحقيقة إن السؤال الوارد نابع من عدم إدراك هذه الجهة المتميزة في الإنسان، وعدّه كالأشياء الأخرى تماماً. ولهذا نعتقد أن إدراك مثل هذا

الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات -حتى لقسم منه- يحلّ المسألة. أما بقية المسألة فهي عبارة عن قبول إحاطة العلم الأزلي بكل شيء.

نعم، إن للإنسان قابلية الحرية والإرادة والميل والاختيار بخلاف المخلوقات الأخرى. وينسب إلى الإنسان الخير والشر والثواب والعقاب حسب تلك الحرية والإرادة والميل والاختيار.

ومهما كانت إرادة الإنسان وميله ضئيلاً أمام عِظَم النتائج الحاصلة، إلاّ أن الله سبحانه قد قبلها شرطاً وسبباً لإظهار ذلك الأمر الجزئي -الذي نسمّيه الإرادة- على هيئة ميلٍ نحو الخير أو الشر، فيكون الإنسان بموجب توجه تلك الإرادة نحو الخيرات أو الشرور مذنباً أو بريئاً. والحادثة الناتجة من هذا الميل مهما كانت ثقيلة بحيث لا يمكن أن تُحمّل على ظهر الإنسان إلاّ أنه هو الذي دعاها وطلبها بميله إليها؛ لذا فالعقاب والثواب يعودان إليه. وتعالى الله عن المسؤولية التي قدّرها وعيّنها وخلقها في وقتها علواً كبيراً.

ولنفهم هذا في ضوء هذا المثال:

لو ربط الخالق العظيم حادثة عظيمة كتبدل المواسم بشهيقنا وزفيرنا. وقال: "إنْ تنفّستم أكثر من هذا الحد شهيقاً وزفيراً فسوف أبدل الوضع الجغرافي لموقعكم". فلو ارتكبنا المحظور لعدم رؤيتنا علاقةً ما بين تنفسنا وتبدل الموسم حسب قاعدة "تناسب العلية"، وهو سبحانه وتعالى بدّل الموسم حسب ما وعد، فالمسؤولية تقع على عاتقنا حيث إننا السبب في ذلك، رغم أن الفعل يفوق طاقتنا بكثير.

ومثل هذا أيضاً: إن كل إنسان يعدّ آثماً ويعاقب، أو بريئاً ويكافأ حسب ما لديه من إرادة جزئية واختيار. وذلك لكونه سبباً في النتائج الحاصلة.

والآن لنقف قليلاً عند الشقّ الثاني من المسألة، أي كيفية التوفيق بين العلم الإلهي المحيط بكل شيء وإرادة الإنسان.

في العلم الإلهي، كل شيء في الوجود وما وراءه هو جنب إلى جنب ومتداخل، بأسبابه ونتائجه. بحيث يكون في تلك النقطة، قبلُ وبعدُ، السبب والنتيجة، العلة والمعلول، الابن والأب، الربيع والصيف... وجهان للواحد. فيُعلم بعدُ كقَبلُ، والسبب كالنتيجة، والمعلول كالعلة ويحكم هكذا.

فأيما شخص وبأي شكل وبأي اتجاه يكون ميله، وبأية جهة سنستعمل، إرادته التي هي شرط عادي، فإن تقدير وتعيين تلك النتائج الحاصلة من تلك الأسباب المعلومة مسبقاً لا تقيّد إرادة الإنسان ولا تكرهه على شيء. لأن ميول الإنسان قد أُخذت بنظر الاعتبار وعدّت فقدّرت بحقه هذه التقديرات. لذا فإن إرادته قد قبلت إذن وأُعطيت لها الأهمية. مثال ذلك:

لو قال شخص عظيم لخدّامه: "متى ما كتَمتم سعالكم تنالون الهدايا السخية، ومتى ما اصطنعتم السعال فلكم العقاب والحرمان من الهدايا". فمعنى ذلك أنه قد قبل إرادتهم وعزّزها.

وكذلك الأمر هنا. فلو قال الله ﷻ لعبدٍ من عباده: "إذا ما أظهرتَ ميلاً بهذا الاتجاه، فأنا أخلق ما ملتَ إليه، وأنا أُعيّن ذلك من الآن حسب ميلك إلى ذلك". فمعنى هذا أنه سبحانه قد أعطى أهمية لإرادة الإنسان.

وبناء على هذا فكما أنه لا تقييد في التعيين المبدئي فلا إكراه أيضاً بما يخالف رضا الإنسان قطعاً.

ثم إن القدر والتعيين المبدئي (المسبَق) عبارة عن الخطة العلمية الإلهية إن جاز التعبير. أي علمه ﷻ بالإنسان وميول الإنسان ووضع خطة وبرنامج وفق ما سيقوم به الإنسان.

والعلم لا يعني وجود ما سيحصل بشكل من الأشكال في الخارج، بل إنَّ قدرة الخالق وإرادته هي التي توجد ذلك الشيء في الخارج بشكل من الأشكال وحسب ميول الإنسان. ولهذا فالأشياء التي ستظهر وتَرِدُ إلى الوجود لم تَرِدْ لأنها عُلمت هكذا. وإنما عُلمت بالأشكال التي وردت. وهذا

هو التقدير المَبدئي والتعيين الأولي. وعلماء الكلام يعبّرون عن هذا بأن "العلم تابع للمعلوم"، أي كيف يكون الشيء هكذا يُعلم. وليس لأنه عُلم هكذا فحَصل. فكما لا يلزم خططنا العلمية وجود ما تصورناه من الأشياء، كذلك بديهي أن ما نعدّه خطط الخالق من التعيينات المبدئية ليس من الضروري أن توجِد شيئاً في الخارج.

حاصل الكلام: إن الله ﷻ المحيط بعلمه الواسع بكل شيء -السابق واللاحق- يعلم الأسباب كالنتائج، ويعلم النتائج كالأسباب. فقد علم سبحانه مَنْ ينوي النية الحسنة ليؤدي عملاً حسناً، ومن يحاول ارتكاب السيئات. وحسب هذه النيات والمحاولات عيّن وقدّر ما سيخلق... فيخلق الأشياء التي قدّرها حسب مشيئته عندما يحين وقتُها وحسب ميل المكلّف ونيته.

ولهذا فإن التعيين المبدئي لموت الشخص وكيفيته وكون الشخص الآخر سبباً في الحادث لا يرفع المسؤولية، وذلك لأن التقدير قد قُدّر بأخذ إرادة الإنسان وحريته بنظر الاعتبار، ولهذا يسند جرمه إليه ويحاسب عليه.

ونرى من الضروري الاطلاع على المصدر الأساس في هذه المسألة العميقة المتعلقة بالقدر ودراستها مكرراً، لأن ما بيّناه عبارة عن توضيح بمستوى العوام، ضمن الأُسس الرصينة للسلف.

ماهية إرادة الكلية والجزئية

السؤال: ما هي "الإرادة الكلية" و"الإرادة الجزئية"؟

الجواب: الإرادة الكلية، هي الإرادة التي تُنسب إلى الله ﷻ لدى العوام، ولكن هذا الاصطلاح لم يكن موجوداً في عهد الصحابة والتابعين وتابع التابعين. فهم لم يطلقوا على الإرادة الإلهية "الإرادة الكلية" ولا على إرادة الإنسان "الإرادة الجزئية". والظاهر أنه لا بأس من وضع اصطلاح كهذا لأجل فهم العوام للمسألة. علماً أن كلامي هذا مفتوح للانتقاد.

وفي الحقيقة أن اصطلاحاً كهذا، نابع عن تعبير طبيعي وتقييم لنتائج الحوادث والوقائع. لذا يمكن أن يعدّ نقطة استناد صائبة.

وقد قُصد من "الإرادة الكلية" التي أطلقت على الإرادة الإلهية هذه المعاني، وهي أن جميع الإرادة تخص الله ﷻ. فالإرادة هي اسم لإرادته ﷻ. فمتى ما أراد هو ﷻ يخلق ما أراد مِن دون النظر إلى إرادة غيره. وهنا نريد أن نلفت نظركم إلى ما ذكرناه سابقاً وهو: أن البعض يقولون: "يخلق ما يريد ولا يخلق ما لا يريد" وهذا الكلام خطأ. والصحيح: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن".

فالجبر هو الحاكم في الكون. فعندما خلق سبحانه الكون لم يسأل أحداً ولم يتخذ أية إرادة أساساً، فهو ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(البروج؛ ١٦)، ولكنه منَح الإنسان إرادة. هذه الإرادة وسيلة ترقٍّ وتدنٍ للإنسان. فمنْح هذه الإرادة يتعلق باسم الله "الرحمن الرحيم". أي أنه لطْف إلهي بتجلي هذين الاسمين. وإلاّ لو نظرنا إلى الأشياء من زاوية الاسم الأعظم ولفظ الجلالة (الله)

فالكون برمته في جبر مطلق. نعم، إن "مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء"... هذه القاعدة سارية في المفعول على جميع الموجودات، سوى الإنسان الذي أُعطي له إرادة مجهولة الماهية. فمتى ما صرف إرادته هذه إلى الخير، فالله يخلق الخير، وإذا ما صرفها للشر، فالله سبحانه يخلق الشر إذا شاء. وما ساقَنا إلى الجُرأة في هذا الحكم إلاّ اعتمادنا على رحْمانية ربنا ورحِيميَّته.

أي أننا نعتقد متى ما أردنا الخير فالله سبحانه وتعالى يخلقه قطعاً. ولكن الله سبحانه وتعالى بلطفه وكرمه لا يخلق الشر أحياناً عندما يريده الإنسان. فمثلاً شخص يحاول أحدهم أن يضلّه بشتى الوسائل، فيميل إليه، ولكن الله سبحانه لا يريد إضلاله ولا يخلق الضلالة لعلمه بما عمل من حسنة في الماضي أو بما سيعمله من حسنة في المستقبل. حتى أنه سبحانه يوجِد مانعاً بحيث يبعده عن تلك السيئة، فيحول بينه وبين السيئة. فهذا عطاء ربانيّ، وحتى الجنة، لأنها –من جهة– مرتبطة باستعمال الإنسان لإرادته... فالله ﷻ يخلق ما أريد باسم الخير، ويكفي للإنسان ألاّ يرتكب إثماً عظيماً يزيل كل الخيرات فيحرم من استحقاقه الإحسان والعطاء من الله.

عطاء الله

السؤال: كيف توضّح قانون "العطاء" لله سبحانه؟

الجواب: العطاء لغةً: هو اللطف والإحسان والهبة، والإعطاء من نفس الكلمة. وجهة العطاء المتعلقة بالقضاء والقدر هي التي تمس موضوعنا. فإذا ما أراد الإنسان الشر فالله سبحانه يقدّره له. إذ التقديرات بحق الإنسان إنما تقدر بأخذ إرادة الإنسان بنظر الاعتبار. فمثلاً: إن كان رَفْعي ليَدي مقدراً قبل رفعي لها، فهو لأن الله سبحانه يعلم أنني سأصرف إرادتي وميلي إلى تلك الجهة. لأن صفة علم الله محيطة بكل شيء -ما حدث وما لم يحدث- حتى بذاته الجليلة. لذا فهو يعلم ما سأفعله، وهكذا يقدّر. "إن عبدي فلان سيميل إلى رفع يده وأنا سأخلق هذا الرفع". أو "أنا كتبت هذا هكذا" وهذا هو القدَر. أي كتابة هذا هكذا هو القدر. أما حين رفعي لليد، فهو القضاء. أي إنفاذ ما قُدّر لي.

أما العطاء فيمكننا فهمه بالصورة الآتية:

يصرف العبد إرادته وميله نحو الشر. ولكن الله يخصّه بعطاء فيحول بينه وبين الشر لوضع حسن لذاك العبد أو لحمله قلباً زكياً أو لعمله الحسن. وبهذا لا ينفّذ بحقه ما قُدّر له. فالعطاء أثّر في القدر، والقدر أثّر في القضاء. ولكن كل هذا يجري في لوح المحو والإثبات. ولا شيء يتغير قط في العلم الإلهي. فلوح المحو والإثبات -من جهة- دفتر الإنسان الخاص به، يمكن أن يحدث فيه التغيير، ولكن التغيير غير وارد أصلاً في اللوح المحفوظ.

والعطاء لطْف إلهيّ. ولا يشترط في اللطف الاستحقاقُ والأهلية. فإذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية نجد أن جميع الحسنات التي نعملها ما هي إلاّ عطاء إلهي.